قصيدة
" السفينة والطوفان "

شعر الدكتور صابر عبد الدايم

تحليل ونقد الدكتور / محمد على داود
أستاذ الأدب والنقد المساعد
فى كلية اللغة العربية بدمنهور

القصيدة :

قال تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » .

واصلى السير يا سفينة نوح
ربانك الذى غاب حى
مزقى ظلمة الخطوب وصدّى
زحفها واحمى عزك السرمدى
وأبيدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى
لم يزل شاطىء الأمان بعيدا
دون مرماك كل عمر زكى !!
انها رحلة الكرامة فامضى
واصرعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسيها
ثم شقى طريقك الأبدى

بددى اليـــأس من خطاك وســـيرى
نحـــو فجر الكرامـــة العبقـــرى
ضـــمدى الجـــرح ليس يعصم الأ
وحـــدة الصـــف للثرى اليعـــربى
خفت غـــدر الطوفان أن يغـــرق الأ
بنـــاء فى ليـــل فرقـــة عصـــبى
جبـــل الجـــودى اعتـــلاه ضـــباب
وجليـــد أخفـــاه عن ناظـــرى
وأرى فى الآفـــاق أشـــباح يأس
وشـــراع الرجـــاء عنهـــا قصى
وبشـــير الســـلام لم يأت بالزيـ
ـتون بل جـــاء بالخـــلاف العصى
فى يديـــه حقيبـــة نـــام فيهـــا
ســـر مأســـاتنا البعيـــد الخفى
دار فى كـــل محفـــل ينشـــر الآ
راء مثـــل المثـــل المســـرحى
جـــاء فى جـــولة وعـــاد لأخـــرى
ثـــم ذابت ومـــا قضـــى أى شى
وكـــأن الســـلام ظـــل كـــلام
يتحـــداه ضـــوء خطـــو عتى
وكـــأن الســـلام عـــذراء تمشى
فى طـــريق الأشـــواك بين العصى
صـــار ألعـــوبة تحركها الأطمـــا
ع فى مســـرح الأســـى العـــالمى
باســـمه صـــار موطنى الحـــر فى
بئر الصـــراع المـــدمى الدمـــوى

فـاذا الـويل فيـــه ينهش كالذئب
الـــذى راح ينهـش الآدمـــى
فى ثرى « هورشيم » صـاحت ألوف
من قضـى عرضـــه فهـــو حى
ودمـاء الشـــهيد فى كـل شـــبر
أنبتـت دوحـة الغـــد الملحـمى
لم تـــزل تحرق المـآس رياضـــا
شـــوهتها حـــروب عصـر غبى
عشش الذر فى بطـــون العـــذارى
فـــاذا بالجنـين غـير ســـوى
أى ذنـب جنـــاه طفـــل بـرىء
فـــيرى بيننـــا بوجـــه شقى
ربمـــا عـــانق الوجـود كسـيحا
أو ضـــريرا أو ذاهـــلا أو عيـى
أو بأنفـــين أو بخمس أيـــاد
أو برأســـين أو بـلا أى شـى
انهـا وصـــمة العلـــوم ووجه الـ
عقـــل فى درب فكـــره التتـــرى
سلم فى الحيـــاة غـــير شـــريف
شـــاده من دم الضـــعاف القـوى

* * *

هـذه الروم فى السـباق مـع الـ
فـرس وكـل مخـــادع ثعلـبى
ان يقـــدم جنى فغيـــه ســـموم
أو ينـــاصر فنصـــره لـولبى

كم على العـــرب صـب نار هـلاك
ومحـا نشـوة ابتهـاج هنى
كـم ببـيروت وزع المـوت حتى
شـاهد الطفـل حتفـه وهو حى
وفلسـطين فى يـديه تلـوى
فى قيـود من الدمـار العتى
انهـا فى سـوق السـياسة بيعت
ثـم منـوها بانعتـاق بهـى
فـاذا جنـة الأمـانى لهيـب
واذا الضـوء للـدجى محـنى
واذا النصـر كالأمانى سـراب
واذا العـز فى الثـرى منسـى
واذا غضـبة الضـياع تهز الـ
ـفلك هـزا مباغتـا هتلرى
فتهـادى الشـراع والفلك غاصت
فى محيـط الأسـى العمـيق الأتـى

* * *

واذا باللـواء يرفعـه الربـ
ـبأن فى همـة الجسـور الكمى
بدأ السـير والسـفينة أشـ
ـلاء بـلا دفـة ومجـرى سـوى
أصـبح الفـلك والشـراع لـديه
أمـل أخضـر وصـبح نـدى

* * *

فانهضـى يا سـفينتى لا تقولى
مات نـوح وجف عطـرى الشذى

كل من فيـــك أنضـــجته المـــآسى
فارتـــدى ثـــوب ثـــأره اليعـــربى
وتحـــدى الريـــاح فى عنفـــوان
وصـــمود يفـــل عـــزم الدعى
عبر مـــوج الصـــعاب انا ســـبحنا
نبتغى شـــاطىء الأمـــان الأبى
واتخـــذنا الصـــمود مجـــدا
فنا الســـاحق مد الهـــزيمة الهمجى
ونســـجنا الآمـــال أشرعـــة حا
مت بأنق المســـتقبل الشـــاءرى
فغـــدا نلتقى عـــلى قبـــة المعـــ
ـراج نجنى انتصـــارنا الأبـــدى
ونقيـــم الصـــلاة فى المســـجد الـــ
ـأقصى ســـراج الهـــدى ومسرى النبى
وهنـــا يا ســـفينتى أحضـــن الآ
مـــال اذ هبت بالحيـــاة عـــلى
وأنادى هـــواك مـــلء فـــؤادى
يا بـــلادى وكـــل شىء لـــدى
قد عشـــقت الهـــوى وأنت هـــوايا
فاســـلمى وانعمى بنصـــر هنى

تحليـــل ونقـــد
السفينة والطـــوفان

الدكتور صابر عبد الدايم شاعر ذو شخصية نهلت منذ نشأتها من معين الثقافة الاسلامية : القرآن الكريم الذى حفظه فى كتاب القـرية والسنة النبوية الشريفة .

كما استقرأ التاريخ العربى والاسلامى وضم الى ذلك المنبع الثر ما قرأ من رياض التراث العربى يقرؤه ويستجليه فكرا وفنا وتذوقا ويستظهر منه الذى يروق ، كما يمكننا القول انه ضم الى هذا التكوين المنهجية والعمق ، يتضح ذلك اذا ما وقفنا على نشأته فى أحضان الأزهر الشريف الذى فيه بدأ يتألق يوم أن كان يقول الشعر طالبا فى معهد الزقازيق الدينى ينال اعجاب مشايخه وتشجيعهم وحبهم ، وكم نال الجائزة الأولى فى المسابقات الشعرية آنئذ .

ولقد توج هذه المسيرة التى ظلت تحيا معه نامية فى كل اتجاه بما يمدها من مصادره توجها بقدراته الفياضة فى هذا المجال بمسيرته الأكاديمية التى هيأت له أن يعيش مع الشعراء والأدباء فى جولاته البحثية القيمة وحبه لكل ما يتصل بهذه الدوحة الباسقة التى تجمع فرسان الكلمة من الأدباء والشعراء والنقاد . فكم من مهرجانات للشعر أقامها فى جامعة الأزهر بالزقازيق كما شارك فى الكثير من المهرجانات الشعرية المصرية .

كما قرأنا فى ديوان له قصائد تنادى بوحدة الصف العربى تحت لواء الاسلام ، ويبرز فى بعضها دور المرأة منذ ظهور الاسلام ومبلغ ما قدمته لقومها وعروبتها واسلامها من هذه القصائد قصيدة «أين الطريق اليك » التى ألقاها فى مهرجان الشعر الأول بكلية اللغة العربية بالزقازيق عام ١٩٨١/١٩٨٢م .

واذكر من هذه القصائد واحدة بعنوان « أسماء الثورة والعطاء والتحدى » فلا عجب اذا عندما نطالع له قصيدته التى عنون لها السفينة والطوفان » ولا عجب أيضا عندما نقف على استلهامه الروح الاسلامية فى القصيدة .

ولعله أراد أن يؤكد لنا هذه الانتمائية فكان البدء ببعض من الآية الثانية والعشرين من سورة يونس : « ... حتى اذا كنتم فى الفلك

وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان .. » والذى نشير الى روح المعنى الذى دارت حوله هذه القصيدة التى مطلعها :

واصلى السير يا سفينة نوح ان ربانك الذى غاب حى

وبذور القصيدة تتركز فى نظرة الشاعر العميقة الواعية الى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ العرب وموقفهم من عدوهم وما هم فيه من تشتت وتمزق وما تعكسه المواقف المخزية مع كل فجر جديد — ولاتزال — من انتكاسات واتساع لهوة الخلاف فى كثير من الأمور المزقة لوحدة الصف العربى مما يذهب ريح العرب ويؤدى الى استعار الخلافات التى تؤدى فى النهاية الى التردى فى ليل الفرقة العصبى فتتمزق الأرض والكرامة بين مخالب الضياع وتخفت البقية من أشعة الأمل بين أشباح اليأس ولا يكون بعد غير اليأس الذى يقطع كل خيوط الرجاء ، وهذه الحالة لا مخلص من شرها ولا منقذ من ضياعها الا الله بحكمته وقدرته .

فالشاعر يرى أن العرب أصبحوا فى حالة من اليأس تشبه حالة اليأس التى كان عليها نوح عليه السلام حين دعا قومه بكل السبل والوسائل ليلا ونهارا فلم يستجيبوا ، ولم يكن الا ماأرادله الله حيث أمره أن يصنع السفينة برعاية الله ويحمل فيها من كل زوجين اثنين وجاء الطوفان وكانت القصة المذكورة فى كتاب الله عز وجل .

ان هذه المرحلة من التمزق تجاه القضية العربية والاسلامية قد سبر الشاعر أغوارها وعايشها فكرا ممزوجا بروحه التى تخفق بحب العروبة والاسلام حتى صار يرى أن لا منقذ من هذا الضياع سوى سفينة كسفينة نوح عليه السلام . تحمل ما هو صالح من الحياة والأحياء وتترك ما بعد ذلك للطوفان ليتبخر فى أوردة الضياع .

— ان هذه السفينة رمز الانتصار المأمول الذى تصنعه يد القدرة

الالهية ، ولم لا تسير السفينة مادام المبدأ باقيا ، فان نوح عليه السلام قد مضى وأساس دعوته باق ممثلا فى توحيد الله عز وجل ، وهو بذلك حى فى شخص رسالة التوحيد،لقد رأى الشاعر أن العرب أصبحوا فى حاجة شديدة الى مثل السفينة المذكورة ليذهب الزبد جفاء ويمكث فى الحياة ما ينفع الناس دينا ودنيا ، ولم لا والناظر الى واقع العرب يرى أنه ما زيغت أبصار من ضاوا وما تمزقت وحدة العرب الا من انصرافهم عن العمل بشريعة الاسلام فانصرف الله عنهم وألقى فى قلوبهم الوهن ، وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » .

ومن هنا سلكوا مسالك الهلاك ، فقد أخذ اللجاج بهؤلاء المتمزقين حتى أقصاهم عن الحق فهووا من مأمنهم الى مكان سحيق ، فلا ريب أن نسمع الصوت عاليا من الشاعر يقول :

واصلى السير يا سفينة نوح ان ربانك الذى غاب حى

وفى استلهام الشاعر لهذه الصورة من قصة نوح رمز لقوة الالهية المخلصة من الحالة التى تردى اليها العرب من تفرق وتمزق تجاه عدوهم وما يصنعونه كل يوم من افتراء للخلافات وفى ضياع عنصر الاخلاص تتوسع هوة الخلافات حتى باتوا غثاء كغثاء السيل أمام عدو شرس تؤازره قوى الضلال والفساد والبغى من كل جانب .

ـ واذا كانت سفينة نوح عليه السلام سببا آخر لنجاة المؤمنين وما معهم مما أمر الله نوحا بحمله معه ورعايته فلعل ما يعنيه بها فى قصيدته السبب الأسمى الذى من أجله نجى الله هؤلاء ، انه السير على الطريق المستقيم فكرا وسلوكا والتمسك بالشريعة الغراء : الكتاب والسنة قولا وعملا ، وبذلك تتحقق لهم الوحدة والنصر فالله عز وجل يقول : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» ويقول فى محكم آياته « ولينصرن الله من ينصره » .

— انها سفينة يرجوها الشاعر لتسير ممزقة ظلمة الخطوب ولتصد زحف الطغيان وتحمى العز السرمدى وتبيد الظلم واليأس عن الحمى العربى يقول :

واصلى السير يا سفينة نوح
ان ربانك الذى غاب حى
مزقى ظلمة الخطوب وصدى
زحفها وأحمى عزك السرمدى
وأبيدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى

وبالنظرة النافذة والبصر الثاقب يؤكد فى عزم واصرار متطلبات المسيرة من صبر وعزيمة وصمود فشاطىء الأمان ما زال بعيدا والوصول اليه يتطلب تضحية بالدماء الزكية ، ولم لا نضحى فى سبيل رحلة الكرامة متسلحين بالصمود والعزم موقنين أن فى ذلك العزة كل العزة والكرامة كل الكرامة . يقول :

لم يزل شاطىء الأمان بعيدا
دون مرساك كل عمر زكى
انها رحلة الكرامة فامضى
واصرعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسيها
ثم شقى طريقك الأبدى

ان هذه المسيرة المباركة التى يرجوها الشاعر ستبدد اليأس من خطى العرب وستسير بهم نحو فجر الكرامة العبقرى وستضمد الجراح ، ولا ريب أن البعث لهذه المسيرة يتمثل فى اتحاد الضمير العربى واعتصام العرب جميعا بحبل الله ، فالقوة والعزة كل العزة فى الاتحاد والتمسك بحبل الله المتين ، ومن هذا المنطلق يهيب الشاعر بالسفينة قائلا :

بددى اليـأس من خطاك وسـيرى
نحـو فجـر الكرامـة العبقـرى
ضمدى الجرح ليس يعصـم الا
وحـدة الصـف للثـرى العبقـرى

وبهذه الأساليب التى تحمل رجاء الشـاعر فى ثوبه المتألق يقـدم صورة لأمنياته التواقة الى سير السفينة التى هى رمز للمطلب السالف، يلجأ اليها فى ثورة البأس يحثها على اسراع الخطى نحو تجسـيد آماله القومية • ثم يخيم شبح اليأس أمام ناظريه فيستنطق السفينة فى هذا الحوار تقول على لسانه :

خفت غدر الطوفان أن يفرق الـ
ابنـاء فى ليـل فرقة عصـبى
جبل الجودى اعتلاه ضـباب
وجليـد أخفـاه عن ناظرى

وبعد أن يستنطق الشاعر السفينة لتعكس فكره وتظهر رأيه الذى يؤكد فى هذه المحاورات أن العامل الأول فى ضعف العـرب هو تمزقهم يتوجه بفكر مركز حول مرحلة من مراحل التاريخ المعاصر للأمة العربية مسجلا تأملاته حول هذه المرحلة صابا جام غضبه على بعض من كان لهم أثر بارز فى هذه المسيرة ، والتى تلت حرب العرب مع اسرائيل ١٩٧٣ من أحداث كان على اثرها اتفاقية بين الجانب المصرى والجانب الاسرائيلى، والشاعر فى هذه الفكرة يقف ازاء شخصية معينة يعرض ذلك فى صـور متلاحقة من السخرية التى تتقاطر من خلال التصـوير والتعبير موضحا عدم الجدوى مما كان محملا اياه كل ما يهب فى الجو العربى من أعاصير التمزق يقـول :

وبشير السلام لم يأت بالزيتو
ن بل جـاء بالخـلاف العصى

فى يديه حقيبـــة نام فيهـــا
سر مأســـاتنا البعيـد الخفى
دار فى كل محفـل ينشـــر الآرا
ء مثـل المثـل المســوحى
جاء فى جـــولة وعـــاد لأخرى
ثـم ذابت وما قضى أى شى
وكأن الســلام ظـل كـــلام
يتحـداه ضـــوء خطـو عتى
وكأن الســـلام عـــذراء تمشى
فى طريق الأشـــواك بين المعصى

ان ما أتى به المتحدث عنه ــ فى نظر الشـاعر ــ جعله فى موطن السخرية ، كما صار ألعوبة فى يد الأطماع يستهزأ بها ، فقد تردى موطن الشاعر ــ بما فعله بشير السلام ــ فى ليل فرقة عصبى ، يقول :

صار ألعوبة تحركها الأطماع فى مسرح الأسى العالمى
باسمه صار موطنى الحرفى بئر الصراع المدمر الدموى

ويرى الشـاعر أن بشير السلام صنع بفعله الهـلاك الذى راح ينهش الناس من كل جانب ويمزق صرح حياتهم ، يقول :

فـاذا الويـل ينهش كالـذئب
الـــذى راح ينهش الآدمـى

وبعد هذا يحلق الشاعر بفكره متنقلا من الجو الوطنى الى الأجواء الانسـانية ، انها نقلة من الخاص الى العام ، من الحديث عن المـأساة التى ألمت بالوطن الى الحديث عن المـأساة التى ألمت بهيروشـيما فى الحرب العالمية الثانية وما خلفت من آثار أتت على الكثير من سكانها وامتدت حتى لازالت تلم بالأحياء بما فيها ومن فيها ما بين حريق يقضى على رياض الحياة وآخر يشوه وجه الحياة يعشش فى بطون العذارى ،

يلاحق الأجنـــة فى البطـــون حتى صرنا نرى أنمـــاطا من التشـــويهات المتلاحقة

يقول الشاعر :

فى ثرى هيروشيم صاحت ألوف
من قضى عرضـــــه فهـــو حى
ودماء الشـــهيد فى كل شـــبر
أنبتت دوحـــة الفـــــدا الملحمى
لم تزل تحرق المآسى رياضـــا
شـــــوهتها حـــروب عصر غبى
عشعشت الذر فى بطون العذارى
فـــاذا بالجنين غـــير ســـــوى
أى ذنب جنـــاه طفـــــل برىء
فـــيرى بيننـــا بوجـــه شـــقى
أو بأنفيـــــن أو بخمس أيـــاد
أو برأســـين أو بـــلا أى شى

ان ما حدث فى هيروشيما يمثل وجه الحضـــارة المظـــلم ووصـــمة العلم وانحراف الفكر الى الوجه النترى ، وهذا سلم غير شريف بنـــاه الأقوياء من دماء الضعفاء ، يقرر هذا فيقول :

العقـــل فى درب فكـــره النترى انهـــا وصـــمة العـــلوم ووجه
ســـلم فى الحيـــاة غير شريف شـــاده من دم الضعاف القوى

ثم يستعرض الشاعر التاريخ ليذكر بطبيعة العدو على امتـــداد الأزمان مذكرا بمـــا شهده التاريخ مما كان من خداع الروم والفرس للعرب ، هـــذا الخداع الذى يتـــدمه العدو فى ألوان براقة ظـــاهرها فى بعضه النفع بينما يخفى تحته السم الزعاف ، كما يشـــير الشاعر الى

بعض ألاعيب العدو وأحيانا يناصر فريسته على غيره ليتولى هو ازدرادها وحده ، يقول :

هذه الروم فى السباق مع
الفرس وكل مخادع عبقرى
ان يقدم جنى ففيه سموم
أو يناصر فنصره لولبى

وهذه بعض صفحات التاريخ التى تطالعنا ببعض مما صب على العرب من نيران الهلاك وما وقع عليهم من اعتداءات ، وصفحات التاريخ تفيض بما يؤكد لكل من ينفق أدنى تأمل أن قول الله الكريم « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان ينبغى أن يفهم هؤلاء هذه الحقيقة وأن يتنبهوا لألاعيب الأعداء وخداعهم ، ومن يتصفح تاريخ الحروب بين العرب وأعدائهم يقرأ فى كل حرب من هذه الحروب شاهدا على تأصل الغدر فى أغوار الأعداء ، يقول :

كم على العرب صب نار هلاك
ومحا نشوة ابتهاج هنى

ولا يزال العدو يذيق العرب والمسلمين الموت الزؤام فى كل مكان فى العالم ، ألم يكن هو الذى دس سموم الفرقة والخلاف بين العرب من قديم ؟ ألم يشعل نيران الفتنة فى كثير من بلدان العرب والمسلمين كما هو الحال فى بيروت ؟ ألم يقتحم كل الحرمات ؟ وها هى ذى غاراته ونيرانه التى يقضى فيها على كل شىء حتى شاهد الطفل مصرعه وهو حى .

كم ببيروت وزع الموت حتى
شاهد الطفل حتفه وهو حى

وها هى ذى فلسطين أكبر شاهد على وحشية العدو وجبنه وغدره فقد ازدردها منذ قرابة نصف قرن فاغتصب أرضها . وشرد أهلها وحطم

ـ ولا زال يحطم ـ مقدساتها وأذاق الكثير من أهلهـا التشريد والموت والذل والهوان بسياسة غدره وخيانته وطغيانه حتى راحت فلسـطين تلوى فى يديه •

يقـول :

وفلسـطين فى يديـه تلـوى
فى قيـود من الدمـار العتى
انهـا فى سوق السياسة بيعت
ثم منـوها بانعتـاق بهـى

وكم من أمان راودت أهلهـا والعرب ثم وأدتها الأعيب الغـدر والخيانة حتى غدت الأمانى لهيبا كما غدا النصر سرابا •

فـاذا جنـة الأمـانى لهيب
واذا العـز فى الثـرى منسى

ومـرة أخرى يعود الشاعر الى الحديث عن أثر هذه المسيرة على السفينة التى يعنى بها الشاعر ـ كما يبدو لى ـ رمز الصمود والتجمع والقوة التى تعمل للتخلص من مخالب الضياع الذى ينهش فلسـطين والفلسـطينيين وهذا فى حد ذاته ترد للعرب أجمعين ، هـذا الضـياع نيران تهب على السفينة فتتهاوى من جديد وتغوص فى محيط الأسى ، نسمعه يقول :

واذا غضبة الضـياع تهـز
الفـلك هزا مبـاغتا هتارى
فتهاوى الشراع والفلك غاصت
فى محيـط الأسى العميق الأتى

وينتقل الشـاعر بعد ذلك محدثا عن فترة اليقظة التى لاحت فى

الأفق اثر ما أحاط بفلسطين والقدس من سوء فوق ما كانت عليه فى السابق حيث أستباح اليهود قدسيتها .

هذه اليقظة التى بدت واضحة فى الأجواء العربية مجسدة عزما وتصميما وتضحية بين الفلسطينيين ترى واضحة فى أعينهم ونفيض بها قلوبهم ، كما يقف العرب معبرين عن اللحمة القوية فى هذه المساندة ما بين مساند بالكلمة أو بسواها .

وليس ببعيد أن يكون هذا الحديث عما حدث من ربانها ، فقد رفع اللواء فى همة الجسور وشجاعة الكمى ، يبدأ السير غير أن الأمور لا تستقيم والسفينة أشلاء ، ولعله يرمز بذلك الى افتقاد العرب للوحدة الصادرة من القلوب وحدة الضمير ، فالكلام كثير والشعارات أكثر والروح فى ذهول وغيبة فكيف المسيرة والأجزاء فى تبعثر ...

ولعلى لا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت ان المقطع الرابع الذى يقول فيه الشاعر :

واذا باللواء يرفعه الربان
فى همة الجسور الكمى

معبرا فيه الشاعر عن ارتفاع اللواء يعنى به القائد الفلسطينى الذى بدأ يتحدى كل الصعاب فوهب نفسه فدية لأرضه وراح يرفع اللواء وبدأ المسيرة فى وقت ضاع فيه التئام شمل الجميع تحت لوائه حيث اختلفت مرئيات بعضهم عن رؤيته فتفرقوا أشلاء ، غير أن عزيمته لم تهن بل ظل يقود السفينة غير آبه بما يعوق المسيرة من رياح قاسية وأمواج عاتية حتى أخذ الجمع يتسرب تحت لوائه وينخرط تحت طاعته حتى سرت الحياة فى خلايا أملهم من جديد وراحوا يرتقبون الصبح الندى .

واذا باللواء يرفعه الربان
فى همة الجسور الكمى
بدأ السير والسفينة أشلاء
بلا دفة ومجرى سوى
أصلح الفلك والشراع لديه
أمل أخضر وصبح ندى

ـ ويتوجه الشاعر داعيا العرب الى النهوض والصمود والأمل يحدوه ، أنه يدعوهم رغم كل الصعاب ، فلقد اتضح الأمر جليا وجنى الجميع ثمرات التجارب وقرأوا ما فى الفرقة من ضياع لهم ، وبات واضحا أنه لا سبيل سوى الاتحاد وأن يلبس الجميع ثوب الثأر اليعربى يتحدون كل العقبات فى عزم وصمود يبتغون شاطىء العزة يتخذون من الصمود مجدافهم ومن الآمال شرعتهم •

ـ وتتراءى للشاعر الآمال الندية دانية من الثورة والثوار حتى راح يعد آماله على اللقاء عند قبة المعراج ينثرون التهانى بهذى الجنى العظيم مقيمين الصلاة فى المسجد الأقصى المبارك ، يقول :

فانهضى يا سفينتى لا تقولى
مات نوح وجف عطرى الشذى
كل من فيك أنضجته المآسى
فارتدى ثوب ثأره اليعربى
وتحدى الرياح فى عنفوان
وصمود يفل عزم الدعى
عبر موج الصعاب انا سبحنا
نبتغى شاطىء الأمان الأبى
واتخذنا الصمود مجدافنا
الساحق مد الهزيمة الهمجى

ونسجنا الآمال أشرعة حامت
بأفق المستقبل الشاعرى
فغدا نلتقى على قبة
المعراج نجنى انتصارنا الأبدى
ونقيم الصلاة فى المسجد الأقصى
سراج الهدى ومسرى النبى

ـ ويتراءى الأمل الذاتى للشاعر عندما ترفرف رايات النصر وتتحقق اللقيا فيعانق هذه البلاد التى فاض فؤاده بهواها وعشقها حتى صارت هواه داعيا لها باستمرار الحياة فى ظلال السلام والنعمة والنصر.

يقول معبرا عن ذلك :

وأنادى ....
هواك ملء فؤادى
يابلادى .. وكلشىء .. لدى
قد عشقت الهوى وأنت هوايا
فاسلمى وانعمى . بنصر هنى

★ ★ ★

العنوان « السفينة والطوفان »

استطاع الشاعر باختياره هذا العنوان أن ينسج حوله أفكاره التى أكد بعضها بالترادف فى حوار جيد ، ولقد وظف السفينة توظيفا بارعا وساعده على ذلك انداح آفاق السفينة مما جعله يحملها تيارات فكرية مجسدة ما فى أعماق الشاعر وموجهة نحو هدف واحد ، لقد راح يعنى بالسفينة رمز التجمع الصالح والتدخل الالهى تارة وتارة أخرى يعنى بها الالتفاف حول الشريعة الاسلامية التى فيها المنقذ من هذا التمزق ، وثالثة يعنى بها الصمود والخلاص .

وبهذا التطويع استطاع أن يقيم حولها أنماطا من الفكر المناسب الذى أثرى التجربة وفتح له باب الحرية ليحاورها فى كل اتجاه وهو بعيد عن حرج المباشرة الذى يؤدى الى الابتعاد عن تفريغ الشحنة والاسترواح الى الحد الذى يريحه •

بين طوفانين :

لعلى لا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت : ان الشاعر يقصد فى قصيدته بكلمة الطوفان التيارات المعيقة لجمع الشمل العربى المبددة للانتصارات والعاملة على كل ما من شأنه بث الفرقة والعداء بين العرب ، فهو تيار هدم بينما هو فى سفينة نوح مسخر من الله للجانبين ظهرت فيهما حكمة الله وقدرته : مسخر لحمل السفينة بمن فيها وما فيها لتتجلى قدرة الله وحكمته وارادته فى انجاء هؤلاء ممن آمن به من ناحية وما تصلح به حياة هؤلاء من مخلوقات أخرى ومن ناحية أخرى مسخر لاغراق الكفار ممن لم يستجيبوا لنداء نوح ودعوته عليه السلام ، فلا تنافر بين السفينة والطوفان ففيهما تتجسد القدرة الالهية والارادة فى حسن ووضوح •

لكن السفينة فى القصيدة بكل ما تحمل من رمزية تعمل لابادة الطوفان الغادر الذى هو من كيد الشيطان وأوليائه كما تهدف الى القضاء على البغاء ••• الخ • ورحلتها رحلة الكرامة ، تقرأ للشاعر هذه الجزئيات الحوارية •• وأبيدى الطوفان فى عنفوان •••• ، انها رحلة الكرامة فامضى •••• ، كما تظهر رسالة السفينة فى القصيدة فهى تمزق ظلمة الخطوب ، وتصد الزحف وتحمى العز السرمدى ، وتبدد اليأس ، وتضمد الجراح الى غير ذلك مما هو مذكور فى القصيدة •

الفكر فى القصيدة :

دارت القصيدة حول فكرة عامة شغلت ــ ولازالت تشغل ــ العرب والمسلمين ، انها حالة العرب تجاه عدوهم الذى اغتصب أرضهم واستحل مقدســاتهم أو القضية العربية بشكل عام والفلسطينيون بشكل خاص كما تضم ما يتصــل بذلك من حروب العرب مع المغتصب وما ترتب على حرب ١٩٧٣م من اتفاقية « كامب ديفيد » وما تبــع ذلك من مواقف عربية بعيــدة عن الاعتصام بحبل الله المتين ومن خلال هــذه الفكرة الشاملة الغنية الفسيحة استطاع الشاعر أن يستوحى صفحات التاريخ وشواهده المــاثلة التى أخرجها الشاعر من الجو الخاص الى العــام بما حملها من فكر استنطقه فى النهاية بالحكمة التى نطق بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا والماثلة فى القول الكريم « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » (١) وبهذا أصبحت القصــيدة ترف بالشعر القومى كمــا استلزمت الفكرة الكبرى ما يسم البعض من الأبيات بالنظرة الانسانية .

ولقد جمعت القصيدة من الجزئيات التى استلزمتها الفكرة الجامعة فى نظر الشاعر وهى ما يلى :

* ١ ــ دعوة السفينة لتواصل السير من جديد فى حوار شيق بين الشاعر والسفينة . استنطقها بما دار فى الأجواء العربية من معوقات ، وانقسمت الفكرة الى قسمين حسب الحوار الذى دار .

القسم الأول :

يرجــو فيه الشــاعر السفينة أن تواصل سيرها وتمــزق ظلمات الخطوب وامتد ذلك فى الأبيات من (١ ــ ٨) .

---

(١) صدر الآية ٧٣ من آل عمران .

القسم الثانى :

يستنطق فيه السفينة بما يمنعها من المسير مما يدور فى الأجواء العربيـــة من معوقات وأحداث وآثار ذلك كله فى أســـلوب أحسن فيه استخدام الرمزية ذات الايحاء المكثف بما حوى ذلك من كناية وتلميح جمع هذا فى الأبيات من (٩ ــ ٢٠) .

ولقد ظهرت براعة الشاعر فى عرضه للأسباب السابقة ساعده على هذا مقدرته الفنية ، فقد تحدث بأسلوب ذى كثافة من لون معين أعطى به من الأسباب لكل حسب طاقته وفكره وثقافته وقدم هذا فى ثوب من الحوار الفنى الشيق .

٢ ــ العروج على الحرب العالمية وذكر بعض مخلفاتها الشهيرة ، لقد ذكر هيروشيما وضربها بالقنبلة الذرية وأثر ذلك الممتد الى الحاضر والمستقبل ويختم حديثه عن هذا الجزء بتقرير بمثابة الحكمة وهو أن استخدام العلم والفكر فى التدمير « سلم فى الحياة غير شريف » ، وأنه شريعة الغاب : (٢١ / ٢٩) .

٣ ــ التفاته الى صراعات بعض الأعداء على مر التاريخ واستعراض ذلك بايجاز يحمل كل عبرة من صراعات الأعداء مشـــيرا الى بيروت وما فيها من هلاك وقتل يوزع حتى للأبرياء من الأطفال والعجزة ومستعرضا ما يجرى فى فلسطين من استنزاف وضياع وغوص فى محيط الأسى العميق (٣٠/٣٩) .

٤ ــ التحول والصـــحوة العربية ممثلة فى حكمـــة ربان السفينة الصامد المصلح (٤٠/٤٣) .

٥ ــ « رجاء وأمل » وفى هذه الفكرة يرجو الشاعر من السفينة أن تنهض من جديد معتمدة على من فيها من مجاهدين أصقلتهم المـــآسى

وكله أمل بأنهم سيلتقون بأفق المستقبل الشاعرى عندما يتحقق الأمل بالعودة واللقاء (٤٤/٥٣) .

« ومما يكن رؤيته بوضوح فى الأفكار الجزئية » :

أن الشاعر تنقل حين سرد لأحداث التاريخ من الحديث الى القديم الى الحديث ، والحاضر ولعله كان مشـــغولا بما فى عصره غير أنه أراد التذكير بما تخلفه الحروب من تدمير وخراب أيا كانت ، وفى حديثه عن الحرب العالمية ما يؤكد ما نذهب اليه اذ نراه يذكر معلمـــا من معالمها التى صارت حديث الناس مذ كانت ولايزال من خلال الدمار والتشويه، واستلزمت طبيعة الحديث عن هذه الجزئية الروح الانسانية التى نراها فى اظهاره ما قد تجره من هول وتشـــويه وتخلف فى الولدان والذرارى ليخلص الى الحكمة المقررة أنها وصمة العلوم الخ .

وحين تناول الروم فى حديثه :

اكتفى بذكر أبيات ثلاثة يستوحى القارىء من خلالها مواقف الروم والفرس مع العرب فى القـــديم ويستلهم التاريخ والوجـــدان العربى اوقفيهما وكيف كان كل منهما يسخر العرب فى الصد عنه وحمايته على نحـــو ما كان يفعل المنـــاذرة والغســـاسنة فقـــد كان الفـــرس والروم يسخرانهما ولو أدى ذلك الى اقتتـــال الامارتين معا ، ويذكر بخـــداع الأعـــداء الدائم ومن ذلك نلمح ما حدث فى هدنة ١٩٤٨م بين العـــرب واسرائيل .

ويمكن أن تكون الرمزية كامنة فى لفظتى الروم والفرس ، والروم والفرس عدوان وهما عدو للعرب منذ القدم ، وقد ظلا يتنازعان على السباق نحو القوة والسيطرة فى القديم ، ولازالت الصـــورة تتكرر فى المعســـكرين الشرقى والغـــربى ففى موقفيهما ما يذكـــر بموقف الروم والفرس وكل منهما .

ان يقدم جنى ففيه سموم أو يناصر فنصره لولبى

وكم خـدع كل منهما العرب والعـرب لا يعتبرون ، فمتى يكون الاعتبار ؟ والعدو هو العدو ولا يمكن جنى العنب من الشوك .

* ومما يتعلق بالأفكار حديث الشاعر عن بشير السلام ووصـفه بصفات تتقاطر سخرية ، وفى تصورى أنه كان ينبغى ـ تكملة الصورة الواقعية ـ ذكره السـبب الأول الذى به تردى العرب فى بئر الصراع الدموى كما يقول الشاعر ، ـ فها هو ذا بلفور المشئوم ، كذلك ما يثير الذعر مما يحدث من شداة الشعارات الذين لا يلهيهم سوى در الكراهية وارضاعها لأبناء العروبة حتى تظل أسواق أرباحهم رائجة على حساب أصحاب الأرض وأصـحاب القضية الأولين ، لقد قدم هؤلاء الشـداة أصحاب القضية وجبات شهية للأحزان والافتراس .

* وجانب آخر وهو أنه حين قص الشاعر قصة بعض الحـروب كالفرس والروم لتسجيل العبرة بعد الذكر والتذكير كان يمكن استغلال ذلك فى التنويه بنتائج الصراعات بين الحق والباطل فى الأزمنة الغـابرة وأن الحق ينتصر فى النهاية وأن هـذه الصراعات كانت مذ كانت الحياة فلعل فى ذلك ما يقوى العزيمة ويدفع الى التصميم على وجه خاص .

العاطفة والتعبير :

ضمت القصـيدة بين طياتها جملة من العواطف التى أسفر عنهـا التعبير فى وضوح ، بينما ترى الآمال الدانية اذ بك تلحظ اليأس يطل من خلال الحوار ليسجل هذا الصراع الذى يدور بينه وبين الأمل عاكسـا الحيرة التى تجوب نفس الشـاعر ، كما تقرأ البغض والاشـمئزاز وما يحرك عوامل الشـفقة والرحمة لتصـل بعد الى ما يحرك الغضب ويثير اليأس ثم يرد تيار الأمل الممزوج بنفس الشاعر ويشع من قلب كل مسلم وعربى ، وهذه العواطف نابعـة من تجربة ذاتية تسـيطر على الوعى

الجماعى ، ولذلك جاءت الأفكار أشبه بالمتعددة الا أنها أقيمت حول أساس واحد يربطها وتنجذب الى مركزه .

وهذه العواطف جاءت ممتدة فى القصيدة على النحو السابق وسيقت فى أسلوب يتردد بين الحوار والاقرار نلمح هذا فى الجزء الذى ساقه الشاعر فى حوار رشيق بينه وبين السفينة ومن ذلك « واصلى السير .. ، مزقى ظلمة الخطوب .. ، أبيدى الطوفان .. ، اعصرى العزم ثورة .. ، بددى اليأس من خطاك .. » ويتماوج الاسلوب فى الأبيات الثمانية الأولى بين الرجاء والتعليل ليأتى الرد فى اسلوب خبرى يتقاطر حسرة وألما ، ويتدرج الرد فى ثوب من الحوار الذى يتلون بالوصف السردى لأحداث التاريخ على لسان الشاعر حين تقرأ له :

وبشير السلام لم يأت بالزيتون بل جاء بالخلاف العصى

ومن يقرأ هذا البيت الى قوله :

صار ألعوبة تحركها الأطماع
فى مسرح الأسى العالمى
باسمه صار موطنى الحر فى
بئر الصراع المدمر الدموى

يلمس وحدة الشعور وتجانس العناصر الفنية فى رسم الصورة وبناء العبارة بطريقة قادرة على حمل عاطفة الغضب والسخرية فى أنصع ألوانهما .

غير أن القارىء لهذه الأبيات ــ أيضا ــ يحس بكثافة السخرية من خلال ذكر الصفات والصور وأيضا من خلال تكرار المسند اليه احدى عشرة مرة فى ثمانية أبيات ، وعلى الرغم من هذا فكل بيت من هذه الأبيات يتضمن صفة تعكس العاطفة من غير أن يضيف الى سابقه تأكيدا بهذا الاحساس .

ولكن من يطالع الأبيات التى يقول فيها :

فى ثرى هورشيم صاحت ألوف من قضى عرضه فهو حى

الى قوله :

سلم فى الحياة غير شريف شاده من دم الضعاف القوى

يرى أن كل بيت يضيف تأكيدا للشعور بالمرارة والحسرة والاشفاق كما يضيف تأكيدا للشعور بالألم الممض حتى اذا ما وصل الى نهاية المقطع بلغ الشعور منتهاه ، ومن هنا نلمس الوحدة فى صورتيها المعنوية والتعبيرية .

وحين يتحدث الشاعر عن الروم والفرس مقررا الحقيقة السالفة الذكر نراه يسير على نمط من المخالفة اذ يرى وقد بدء بدءا يتسم بالهدوء الذى يتدرج الى التكثيف الهادىء ليأخذ بنا فجأة لنشهد انهيار الأمانى وتصدع الآمال والتردى الى الهاوية من جديد فى تصوير بديع .

ثم تتراءى الرمزية التى تحوى من الغموض ما يحتاج كشفه الى فضل من التأمل فى صفحات التاريخ ليصل الى الفكر المقصود ، وهذا — فى تصويرى — يعد لونا من البراعة فى التعبير عن مثل هذه المعانى التى يقول فيها :

واذا باللواء يرفعه الربان
فى همة الجسور الكمى
بدأ السير والسفينة أشلاء
بلا دفة ومجرى سوى
أصلح الفلك والشراع لديه
أمل أخضر وصبح ندى

وهذا عكس ما نراه فى نفس القصيدة عند تعبيره المكشوف عندما تحدث عن « بشير السلام » كما دعاه •

وفى المقطع الأخير :

الذى تترقرق فيه الآمال وتتراءى الصحوة العربية المأمولة يحدو الشاعر الأمل البسام فيرجو سفينته أن تنهض من جديد نافضة غبار اليأس عن أجوائها متحدية الرياح بما يجرى فى عرقها من عزيمة واصرار ليتحقق الأمل الأخضر ويدنو الصبح الندى ويتعانق الأحبة حول المعراج •

* وتحوم الصورة مع الآمال الشاعرية متجانسة مع الأنسجة والألوان ، والأبيات التى حملت حواره مع السفينة ترى فيها الصورة الفياضة بالعزيمة والتصميم والقوة والحماس يتخذ فيها الشاعر من التشخيص والتجسيد وسيلة للوصول بالصورة الى درجة من القوة تتناسب مع العاطفة ، ومن ذلك « مزقى ظلمة الخطوب •• وصدى زحفها •• وأبيدى الطوفان •• واصرعى اللج بالصمود •• واعصرى العزم •• وضمدى الجرح •• وأرى فى الآفاق أشباح يأس •• » الخ •

وعندما يقف تجاه « بشير السلام » تساعده الصورة التى انتقاها فى انعكاس ما يترقرق فى ذاته من سخرية واشمئزاز فى أنماط من الصور الوصفية والفنية فهو يحمل :

فى يديه حقيبة نام فيها
سر مأساتنا البعيد الخفى
دار فى كل محفل ينثر الآراء
مثل المشل المسرحى
صار ألعوبة تحركها الأطماع
فى مسرح الأسى العالمى

باسمه صار موطنى الحر فى
بئر الصراع المدمر الدموى
فاذا الويل فيه ينهش كالذئب
الذى راح ينهش الآدمى

وفى حديثه عن هيروشيما لا يكتفى بالوقوف مصورا ما تحمله ذاته من أسى وانما يوجهها مخترقة الحجب والأستار نحو القلوب ، وهـذا لا يتأتى الا من موهبة ذى رؤية شاملة تتحرك فى مساحات فسيحة •

فدماء الشهيد فى كل شبر
أنبتت دوحة الفدا الملحمى
لم تزل تحرق المآسى رياضا
شوهتها حروب عصر غبى

كمانطالع هذه الصور التى تعكس مرارة المعاناة وروعة الاشفاق ولوعة الحزن فى قوله عما ينتظر الأجنة بسبب ما حدث فى هيروشيما،فالطفل :

ربما عانق الوجود كسـيحا
أو ضريرا أو ذاهـلا أو عيى
أو بأنفـين أو بخمس أيـاد
أو برأسـين أو بلا أى شى

يجعلنا نقول : ان الشـاعر بتجربته فى هذا الميـدان استطاع أن يوظف المفردات توظيفا جيـدا ، وهذه مرحلة ابداعية تنم عن مقـدرة معطاءة ، ومما تقدم نلمس التناسب بين العاطفة والصورة والتعبير •

فى القصيدة تعبيرات فى حاجة الى وقفة لما فيها من دلالات معينة، وهى تعبيرات تشيع فى أشعاره حتى صارت من سماته التعبيرية ـ فى تصورى ـ ومن هذه التعبيرات :

« فجر الكرامة العبقرى » :

وهو تعبير يوحى بكرامة من نوع خاص ، انها الكرامة العربية فى أسمى معانيها والتى كانت ولازالت حديث صحائف التاريخ وموطن العجب ، كرامة العربى منذ القدم ، انها الحياة الحقيقية كما يراها العربى .

« التعبير الخفى » :

عبارة يصف بها سر المأساة ترديدا فيها ، وفى وصفه بالبعيد الخفى تنبيه القارىء والسامع المتأمل الى استلهام الماضى من جديد والبحث عن أبعاد المشكلة للوقوف على الحقيقة بوضوح ، وفى الخفى ما يرشد الى أن فيها آثارا تتبع آثارا . وأن استجلاءها فى حاجة الى دقة ووقفة واسترشاد لادراك هذا الخفاء وفيه دعوة الى العرب لترك الخلاف المرهيب وتقصى مشاكلهم للانتشال منها ببصيرة .

بئر الصراع المدمر الدموى :

فى هذا الشطر ما يوحى بالنتيجة السيئة التى وصلنا اليها من جراء الخلاف وأن المشكلة أعمق وأخطر مما يتصوره البعض وأنه اذا لم يتفاهم العرب لحقيقة القضية ويسارعون نحو الحل بخطى مدروسة ومنظمة سيصير الأمر خطيرا والنهاية هى الفناء الذى يجر فناء ويريق دماء ودماء .

حروب عصر غبى :

وصف العصر بأنه غبى يوحى بمدى ما فيه من خداع السياسيين، كما يوحى بأن كل اتفاق يخفى تحته قتلا وتدميرا ، كما يدعو الى أخذ الحذر بصورة دائمة .

بخمس أياد :

والتعبير بخمس دون غـيرها « كسبع أو تسـع » يمكن أن يكون تيمنا من الشـاعر اذ الصلوت خمس وأركان الاسـلام خمسة ، أو أن الأصابع قد يعتريها التشويه ، فيكبر حجمها حتى يصل الى درجة يظن معها أن كل اصبع يد •

وزع الموت :

تعبير يوحى بضـياع من هذا العدو الغادر الذى راح لا يجـد حرجا فى هذا التوزيع بل أصبح عنده مباحا وكأن الموت صار منقذا من قسوة الحياة التى صنعها لهؤلاء •

الضوء للدجى محنى :

تعبير يفيد انقلاب المعايير وضياع اقيم وتفشى الباطل الى غاياته•

العز فى الثرى منسى :

فيه اثارة لهـؤلاء الذين هانت عليهم نفوسـهم فراحوا يرضـون بهذه الحياة •

انتصارنا الأبدى :

يوحى بالانتصار القائم على أساس من الدين والاسلام والمبادىء لنحظى بتأييد الله ونصره على الدوام •

أحضن الآمال :

تعبير يعكس غاية الشعور بالفرحة الغامرة التى فيها الاحسـاس بالحياة نتيجة تحقق الأهداف على خير وجه •

وأما طول النفس فى القصيدة الى الحد الذى بلغته من الأبيات فهذه سمة شائعة فى شعر الشاعر ، كما أن المضمون الفكرى فيها يتطلب من الطول ما يؤدى الى توضيحه وتأكيده فى النفوس ولما للموضوع من أهمية على النطاق القومى مما جعله يستنفذ فيه هذا القدر من الامتداد .

وجاءت القصيدة من بحر الخفيف ولقد صنع الشاعر للقافية قيدا فسكن حرف الروى ولعل ذلك من باب سكن تسلم وفى ذلك بعد عما تجره اختلاف حركة الروى « لو حرك » من اقواء واصراف ، ويمكن أن يضاف الى ذلك تعليلا وهو أن التسكين يؤدى الى احتباس الصوت مما يؤدى الى تكوين طلعة انفجارية تظهر فى البيت الثانى مما يجعل كل بيت بمثابة طاقة مدوية ولعل هذا مما يناسب هذا النداء الموجه الى العرب والمسلمين للنهوض من التردى القاتل ...

والله أعلم ...